التناول الأبوكاليبسي للفتح الإسلامي: نبوءة ميثوديوس المجهول أنموذجا

♦ أ. د. عبد العزيز رمضان*

● المقدمة:

كان الفتح العربي الإســـلامي لمصر والشام تحديا خطيرا للقوة العظمى في القرن السابع الميلادي والممثلة في الإمبراطورية البيزنطية، إذا ظهر عجزها العسكري عن الدفاع عـــن ولايتها الشرقية، في الوقت الذي قلص من قوتهـــا وحصرها داخل حدودها الضيقة لتظل بها طوال القـــرون الباقية من عمرها. وعلى المســـتوى الأيديولوجي خلق النجاح الإسلامي في الشرق حالة من القنوط لدى البيزنطيين وأنصارهم من أهل البلاد المفتوحة. وتجســـدت هذه الحالة في ظهور نوع من الأدب ارتبـــط في الأذهان بالأمل في الخلاص من هذا الســـيد الآتي، وهو أدب الأبوكاليبسApocalypse ، أو أدب الرؤى والنبوءة، الذي عاد إلى الظهور للتعبير عن حلم بات من الصعب تحقيقـــه على أرض الواقع، مما دفع كتّابه إلى نسج سيناريوهات تعبر عن رؤاهم المستقبلية لمصير العالم ونهاية الزمان، يجسدون فيها ويعبرون من خلالها عن حالة العجز التي أصابت القوة السياسية الحالية وأملهم في حتمية خلاصهم بأداة ربانية مقدرة .

وأدب الأبوكاليبس قديم وليس وليد القرن السابع الميلادي، إذ ارتبط من قبل باليهود وفكرة ظهور مســـيح يهودي من نسل داود (ع) يخلصهم من العبودية ونير المحتل، ويحقق لهم ما ادعوه دوما من أنهم شعب الله المختار باستعادة أمجادهم القديمة وإعادة بناء مملكة داود وســـليمان على أرض الواقع، وهو ما لم يتحقق نتيجة ظهور مسيح أخروي بدلا من المسيح الدنيوي اليهودي.

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

ومع ذلك ظل الأبوكاليبس المجسد للحلم اليهودي في الخلاص على يد المسيح المخلص قائما حتى العصر الحديث، وارتبط وتدعّم بالفكر الصهيوني[١].

وفي القرن السابع أُعيد تقديم أدب الأبوكاليبس بعد تطويره ليلائم الأوضاع الجديدة التي طرأت على العالم المسيحي، ولكنه في الوقت نفسه ظل يمثل امتدادا للفكرة اليهودية عن «المخلص المنتظر»، وإن اختلف عن الأبوكاليبس اليهودي في أمرين، يتمثل الأول في أن المخلص المنتظر هنا لم يعد ممثلا في شخص مسيح من نسل داود (ع)، و إنما غدا شخصا يرتدى العباءة الملكية ويضع على رأسه تاج الملك، أما الأمر الثاني فيتمثل في اختلاف القوة التي ينتظر ويؤمل في الخلاص منها، حيث أُستبدل البابليون والآشوريون ثم الرومان عند اليهود الآن بالمسلمين، القوة الفتية الجديدة التي بدأ ينظر إليها – من البيزنطيين وأنصارهم- على أنها تشكل الخطر الحقيقي والداهم على المسيحية والعالم المسيحي بأسره، ومن ثم أصبح هذا النوع من الأدب يدور حول فكرة رئيسية ألا وهي ظهور ملك منتظر يخلص المسيحية وعالمها من خطر الإسلام وعالمه[٢].

وطالما كان هذا النوع من الأدب القديم في ثوبه الجديد موجها الآن وبدرجة رئيسية ضد الإسلام، وبما أنه كان أيضا نوعا من الأدب التنبؤي الخيالي الذي يبعث الأمل إلى أفئدة الكارهين، فقد حرص كُتّاب هذا الأدب على إضفاء نوع من النبرة التفاؤلية والتأكيد على الانتصار النهائي والحتمي للمسيحية، ولدعم نبوءاتهم ولتأكيدها في الوقت ذاته عمدوا إلى الاستشهاد بفقرات من المزامير وأسفار الرؤيا في العهدين القديم والجديد لإقناع قرائهم برؤاهم، ولإضفاء قدر من المصداقية الدينية على أمور غيبية لم تتحقق على أرض الواقع ولا توجد بوادر لتحققها في القريب العاجل، ولهذا الدافع أيضا عمدوا إلى صياغة رؤاهم الجديدة بمزجها بسلسلة من الرؤى المستوحاة من التوراة والإنجيل، كالحرب المقبلة مع القبائل القادمة من الشمال والمسماة يأجوج ومأجوج وظهور المسيح الدجال والمجيء الثاني للمسيح.

ويبدو أن هذا النوع من الأدب لم يكن فقط لبث حلم الانتصار على الإسلام بغرض رفع معنويات المكلوبين من رجال الدين والرهبان الموالين للإمبراطورية البيزنطية، بل كانت له مقاصد أخرى بعيدة المدى، أولها الإساءة للمسلمين وتشويه صورة الإسلام وحركة الفتوحات الإسلامية، ووصفها بالوحشية والدموية وأنها تمت بحد السيف، والثاني هو نتيجة منطقية للأول وهو أن يظل المسيحيون على معتقدهم، خاصة بعد دخول عدد كبير من سكان البلاد المفتوحة في الإسلام، والتأكيد على أن أولئك باتوا في عداد الكفار، وبديهي أن يكون ذلك أمرا طبيعيا في كتابات يُرجح أن يكون مؤلفوها من رجال الدين ممن اتصفوا بالتعصب [٣].

(١) عن أدب الأبوكاليبس اليهودي وارتباطه الوثيق بفكرة المسيح المخلص، ينظر: منى ناظم، المسيح اليهودي ومفهوم السيادة الإسرائيلية، أبو ظبي، ١٩٨٦، ص ١٠٨ وما بعدها.

(٢) رغم ذلك الاختلاف، ظل هناك رباط قوي بين الأبوكاليبس اليهودي ومثيله في القرن السابع الميلادي، إذ أن كليهما عكس حالة الانكسار العسكري والهزائم المتلاحقة، سواء التي مُني بها بنو إسرائيل من سبي آشوري عام ٧٢٢ق. م، ثم بابلي عام ٥٨٦ق. م، إلى الشتات الكامل عام ٧٠م على أيدي الرومان، أو الهزائم البيزنطية المتلاحقة على أيدي المسلمين حتى ضياع ولايتها الشرقية خاصة مصر والشام، فكما كان الأبوكاليبس اليهودي المرتبط بمفهوم المسيحانية (الخلاص) تعويضا لمشاعر النقص وحالة الدونية التي سقط فيها بنو إسرائيل، كان أبوكاليبس القرن السابع وما تلاه تعبيرا عن حالة الفشل والعجز وتعويضا لمشاعر الإحباط واليأس التي ملأت البيزنطيين وأتباعهم في الشرق.

(٣) كذلك؛ يلاحظ المطالع لهذه الكتابات من الوهلة الأولى أن هناك تمجيدا غير مألوفا لبيزنطة وحكامها، رغم أن الواقع يؤكد أن رجال الدين الشرقيين بل والكنائس الشرقية عامة لم تلق من العنت مثلما لقيت على أيدي حكام بيزنطة، وربما يرجع ذلك إلى أن مؤلفي هذه الكتابات كانوا من الموالين لبيزنطة، وأغلب الظن أنهم انتموا إلى طائفة المذهب الملكاني (الخلقدوني)، ولذلك كتبوا باسم بيزنطة على اعتبار أنها القوة الأكثر تضررا من الإسلام، ولأنها أيضا الوحيدة في ذلك الحين المرتجى منها مواجهته.

وقد دفع هذا النوع مـــن الأدب عددا من الباحثين الغربيين المحدثين إلى الاتـــكال عليه للادعاء بأن الفتوحات الإسلامية تمت بحد السيف، قهرا وجبرا على ســـكان البلاد المفتوحة[٤]، وهو أمر بطبيعة الحال مناقض للواقع، فهذه الكتابات ليســـت إلا دليلا على نظرة الكراهية من جانب الإمبراطورية البيزنطيـــة ومؤيديها من أهل البـــلاد المفتوحة للإســـلام والمســـلمين باعتبارهم كانوا أصحاب المصلحـــة الحقيقية في تخليهـــا وهي كارهة عن مكانتها بوصفها قوة عظمـــى، كما أنها تعكس الأصول العدائية للإســـلام والتي استمر تأثيرها طوال مدة العصور الوســـطى، وتركت صداها القوي على بعض النبـــوءات التي لا تزال تروج في الغـــرب الأوروبي، موضوعها نهاية الإســـلام وغايتها بث وتقوية روح العداء له ولمعتنقيه[٥].

وهـــذا البحث مجرد محاولـــة للاقتراب و إلقاء الضوء على أحد النمـــاذج المبكرة لهذا النوع من الأدب الموجه ضد الإســـلام، عنـــاصره المكونة، والنظـــرة العدائية التي احتواهـــا، وهو النبوءة المسماة برؤيا ميثوديوس[٦]، والتي ربما كُتبت في

(4)Constantelos, D.J., «The Moslem Conquests of the Near East as revealed in the Greek Sources of the Seventh and the Eighth Centuries», Byzantion 42(1972), pp.323-357; Moorhead, J.,»The Monophysite Response to the Arab Invasions», Byzantion 51(1981), pp.579-591.

وتســـتند هذه الأبحاث على مثل هـــذه النصوص للتأكيد على أن السريان والأقباط قاوموا الفتح العربي الإسلامي وانحازوا إلى الجانب البيزنطي في مواجهته، وبالتالي تشكك تمامـــا في فرضية قبول أهالي البـــلاد المفتوحة وترحيبهم بالفتح الإسلامي.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن أدب أبوكاليبس القرن السابع، ينظر:

Hoyland, R.G., Seeing Islam as Others saw it: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam, Princeton, New Jersey, 1997, pp.257-335.

عرضـــت هذه الدراســـة لموجز عن النبـــوءات السريانية والقبطية واليونانية التي تنبأت بزوال السيادة الإسلامية، ومن بين هذه النبـــوءات السريانية: نبوءة إفرايم المجهول التي تحمل عنوان «عظة القديس إفرايم عن نهاية العالم وخـــروج يأجوج ومأجوج والمســـيح الدجـــال»، ونبوءة ميثوديوس المجهول، ونبوءة يوحنا الرهاوي وميثوديوس الرهـــاوي المعنونة «انجيل الرســـل الإثني عشر»، ونبوءة الراهب باحـــيرا، ونبوءة عزرا المجهول المعنونة «بشـــأن نهاية الإسماعيليين». عن هذه النبوءات ينظر:

Hoyland, Seeing Islam, pp.260-278.

=وعن نبوءة «انجيل الرسل الاثني عشر»، ينظر:

Drijvers, J.W., "The Gospel of the Twelve Apostles: A Syriac Apocalypse from the Early Islamic Period", The Byzantine and Early Islamic Near East, vol I: Problems in the Literary Source Material, ed, A. Cameron & L. Conrad, Princeton: The Darwin Press, 1992, Princeton, New Jersey, 1992, pp.189-213.

وعن أثر نبوءة ميثوديوس على النبوءات اللاحقة في العصور الوسطى ينظر:

Alexander, P., «Medieval Apocalypses as Historical Sources», American Historical Review 73/4(April 1968), pp.997-1018; Idem, «Byzantium and the Migration of Literary Works and Motifs: The Legend of the Last Roman Emperor», Medievalia et Humanistica 2(1971), pp.47-68; Reeves, M., «Joachim of Fiore, Dante and the Prophecy of a Last Roman Emperor», ΚΑΘΗΓΗΤΡΙΑ : Essays Presented to Joan Hussey for her 80th Birthday, Porphyrogenitus, 1988, pp.385-394.

(٦) العنـــوان الأصـــلي للنبوءة هـــو: «خطبـــة كتبها ميثوديوس، الأســـقف والشـــهيد، بشـــأن تعاقب الملوك ونهاية الأزمنة».

"An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius", trans. S.Brock, in: The Seventh Century in the West-Syrian Chronicles, trans. A.Palmer, Liverpool, 1993, pp.222-242, esp.p.222; Martinez, F.J., Eastern Christian Apocalyptic in the early Muslim Period: Pseudo Methodius and Pseudo Athanassius, Ph.D. dissertation: Catholic University of America, 1985, p.122.

(٧) اختلف الباحثون حول ســـنة تأليـــف هذه النبوءة، فاقترح كل مـــن P. Alexander و H. Suermann أنها ربما كُتبت خلال الفـــترة ما بين عام ٦٤٤م وقبل حصار القســـطنطينية غير الناجح أعـــوام ٦٧٤-٦٧٨م. بينما اقترح S.Brock عامـــي ٦٩٠-٦٩١م عـــلى افتراض أن الكاتب حدد فترة الســـيادة العربية بنحو ســـبعين عاما وأنـــه كان حيا قرب نهاية هذه المدة. =

شمال بلاد الشام أواخر القرن السابع الميلادي[٧] على يد راهب سرياني مجهول[٨]. وقد أُلف النص الأصلي بالسريانية[٩]، ثم سرعان ما ترجم إلى اليونانية، ومنها إلى اللاتينية[١٠] والسلافية. وقُدر له على حد قول كيريل مانجـــو[١١] Cyril Mango أن «يترك أثرا عميقا فى الفكر الأخروي للعصور الوسطي، إذ استمر تأثيره حتى القرن التاســـع عشر، رغم أنه أُلف في جزء ناءٍ من العالم كرد فعل لمأزق كنيسة اليعاقبة في ظل

= وقد أيد Martinez F.J. هـــذا الرأي وإن اقترح تعديل هـــذا التاريخ بعامـــي ٦٨٩-٦٩٠م. ووفقا لأحدث ناشر للنص السرياني الأصـــلي G.J. Reinink كُتب هذا النص في عهد الخليفة عبد الملك بـــن مروان خلال الفترة ٦٩١-٦٩٢م، وعلى أساس تحليله الدقيق للنص، يقترح رينينك أن العمل كتـــب في المنطقة الحدودية بين بيزنطة وفارس حول مدينة ســـنجار Sinjā، وأنـــه ربما وُضع كرد فعل للتطورات السياســـية والاجتماعية في المنطقة خلال تلك الفترة.

Alexander, P., The Byzantine Apocalyptic Tradition, Berkeley, 1985, p.25; Suermann, H., Die geschichtstheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7.jahrhunderts, Frankfurt am Main, 1985, pp.160-161; Brock , S., «Syriac Views of Emergent Islam», Studies on the First Century of Islamic Society, ed. G.H.A.Juynboll, Carbondale & Edwardsville, 1982, repr. Idem, Syriac Perspectives on Late Antiquity, London, 1984, no.viii, p.19; Idem, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.225; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.30-1; Reinink, G. J., «Ps.-Methodius: A Concept of History in Response to the Rise of Islam,» The Byzantine and Early Islamic Near East, vol I: Problems in the Literary Source Material, ed, A. Cameron & L. Conrad, Princeton: The Darwin Press, 1992, Princeton, New Jersey, 1992, pp. 149-187.

(٨) نســـب كاتب النبوءة تأليفها إلى ميثوديوس أســـقف أوليمبوس Methodius of Olympus الذي استشـــهد عام ٣١٢م. وهو أمر بلا شك تعمده الكاتب ليوحي لقرائه بأن تأليف النبوءة تم قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، وبالتالي يضفي المصداقيـــة على ما ورد بها مـــن أحداث تحققت بالفعل وشـــاهدها المعاصرون بأعينهـــم، خاصة فيما تتعلق بسيادة العرب على بلاد الشام في أعقاب الفتوحات الإسلامية الأولى.

Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.222; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.122.

(٩) اعتمد الباحث على الترجمة الالمانية للنص السرياني الاصلي: Reinink, G.J., Die syrische Apokalypse des Pseudo-Methodius, Corpus Scriptorum Cristianorum Orientalium : vol. 541, Louvain: Peeters, 1993. كما اعتمد على الترجمـــة الإنجليزية له : Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.230-242; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.122-154.

(١٠) تُعد نبوءة ميثوديوس من الكتابات السريانية القليلة جدا التي تُرجمت إلى اللغة اليونانية بعد الفتح الإســـلامي لبلاد الشـــام، خاصة وأن هذه الترجمـــة تمت بعد فترة قصيرة من تأليفها، إذ يعود أول مخطوط يوناني معروف لها إلى القرن الثامن الميلادي، الأمر الذي قد يشير إلى أهمية هذا المؤلَف لـــدى البيزنطيين ومدى عمق صلة كاتبه بهم.

Brock, S., "Greek into Syriac and Syriac into Greek", in: Idem, Syriac Perspectives on Late Antiquity, London, 1984, no.II, pp.1-17, esp.p.15. . .

ينظر أحدث نشر للنصين اليوناني واللاتيني:Aerts, W.J., & Kortekaas, G.A.A., Die Apokalypse des Pseudo-Methodius. Die ältesten griechischen und lateinischen Übersetzungen, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 569, Leuven, 1998. .

وينظر نشر النص اللاتينـــي:Sackur, E., Sibyllinische Texte und Forschungen. Pseudo Methodius , Adso , und die tiburtinische Sibylle, Halle, ١٨٩٨..

وقد رجع الباحث إلى هذا النص بجانب اعتماده الأساسي على الترجمتين الإنجليزية والألمانية للنص السرياني

(11)Mango, C., Byzantium: The Empire of New Rome, New York, 1980, p.206.

(١٢) اختلـــف الباحثون حول تحديد الطائفة الدينية التي انتمى إليها ميثوديوس، ففـــي الوقت الذي اتجه فيه كل من F.Nau و Alexander و Suermann إلى أن المخطوطات الباقية من هذا المؤلف تقود إلى جماعة السريان الأرثوذكس (اليعاقبة)، خاصة وأن عددا كبيرا من كتاب هذه الجماعة اللاحقين اعتمدوا على هذه النبوءة واقتبسوا منها. عارض Brock و Martinez هـــذا الرأي متجهـــين إلى القول بأن الاقتباسات المبكرة من هذه النبوءة وُجدت أيضا في كتابات السريان الملكانيين إبان القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. ويتجه هـــذا الفريق-وهو ما يميل إليـــه الباحث- إلى أن ترجمة النبوءة السريعـــة إلى اللغة اليونانية، وأيديولوجية الكاتـــب الموالية للبيزنطيين بصـــورة واضحة وظاهرة=

السيادة الإسلامية»[١٢].

وتتألف نبـــوءة ميثوديوس من أربعة عشر فصلاً، يمكن تصنيفهم في أربعة أقســـام الرئيسة[١٣]:- يتضمن الأول الفصول الســـتة الأولى من النبوءة، وهو عبارة عن مقدمة مستوحاة من العهد القديم تتناول تاريخ العالم منذ بدء الخليقة، ويتحدث فيها الكاتب عن خلق آدم وحواء وقتل قابيل لهابيل[١٤]، وقصة نوح وأبنائه[١٥]، ثم يصل إلى قصة إبراهيم وزواجه من سارة وهاجر المصرية[١٦]. وقد حاول الكاتب في هذا القسم تقديم تفسير لتباين الأجناس والســـلالات بعد طوفان نوح وانســـياح أبنائه في مختلف جهات الأرض، والأهـــم من ذلك أن يقيم تمييزا بين العرب وبني إسرائيل، حيث أطلق على الأولين اســـم «بنى إســـماعيل» لكونهم من نسل إسماعيل ابن هاجر المصرية، وعلى الآخرين «بني إسرائيل» لكونهم من نسل اسحاق ابن سارة.

أما القســـم الثاني؛ والذي يشـــتمل على الفصلين الثامن والتاسع من النبوءة، فيمكن أن نطلق عليه «أسطورة الإسكندر»، ويتكون من مقدمة تاريخية من العصر اليوناني المقدوني مصبوغة بمســـحة أسطورية، فيها تم المزج بين شخصيات وأحداث تاريخية حقيقية وأخرى مســـتوحاة من الخيال، حاول الكاتـــب من خلالها إثبـــات قضية مثيرة للدهشـــة وهي أن الإمبراطوريـــة البيزنطية ذات أصل حبشي، وكان عليه بعدئذ أن يبرر كيف كان ذلك، والأهم ما هو دافعه إلى ذلك، وفي الوقت الذي قدم فيه تبريرا أسطوريا بنسج قصة أرجع بدايتها إلى عهد فيليب المقدوني، لم يعط تفســـيرا مباشرا عن دافعه للربط بين الحبشـــة وبيزنطة، وان كنا نستطيع استنتاج ذلك من سياق نبوءته.

وبالنسبة إلى أصل بيزنطة الحبشي، برره الكاتب بزواج فيليـــب المقدوني من كوشـــات Kūshat ابنة ملك الحبشـــة المدعو بيـــل Pīl، والتي عادت بعد وفاة فيليـــب إلى أرض الوطن، ثم زُوجت من بيزاس Byzas ملـــك بيزنطة، وأنجبا ابنة واحدة سميت بيزنطيا Byzantiyā، زُوجت من ملك روما رومولوس أرخيـــلاوس Romulos Archelaos، الذي أهداها رومـــا بوصفها هدية زفاف، وأنجب رومولـــوس وبيزنطيا ثلاثة ذكـــور، رومولوس الصغير الذي حكم روما، وأوربانوس Urbanos الذي حكم بيزنطة، وكلاوديوس Claudios الذي حكم الإســـكندرية. وهكذا أراد الكاتب إثبات أن إمبراطورية الرومان والإغريق ذات اصل حبشي[١٧].

أما عـــن الدافع من الربط بـــين بيزنطة والأصل الحبشي، فيمكن اســـتبيانه مـــن المقدمة التي بدأ بها الكاتب قصته، والتي جاء فيها:- «أنصت الآن كيف انصهرت معا هـــذه الإمبراطوريات الأربع، الأثيوبية مع المقدونيـــة، والمقدونية مع اليونانية،

=تماما عـــبر النبوءة، تقترحان بقـــوة انتماء الكاتب إلى طائفة الملكانيـــين (الخلقدونيين). أما Reinink فرغم أنه يميل إلى الاعتقـــاد في انتماء الكاتب إلي المحيط الأرثوذكسي السرياني، إلا أنه يرى بأن الكاتب، سواء أكان يعقوبيا أم ملكانيا، ربما تعمد عدم إظهار هويته الدينية حتى يُكتب لمؤلفه الذيوع والانتشار بين أتباع الطائفتين.

Nau, F., "Methodius-Clément-Andronicus", Journal Asiatique 9(1917), p.446; Alexander, The Byzantine Apocalyptic Tradition, p.29; Suermann, Die geschichtstheologische Reaktion, p.161; Brock, Syriac Views, pp.19-20; Idem, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.225-226; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic; p.28; Reinink,G.J., "Der Verfassername Modios der syrischen Schatzhöhle und die Apokalypse des Pseudo-Methodius", Oriens Christianus 67(1983), pp.46-64, esp.pp.63-64.

(١٣) هـــذا التصنيف من وضع الباحـــث ولم يرد في نص النبوءة.

(14)Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.1-4; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.122-124.

(15) Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.4-10; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.124-128.

(16) Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.11-13; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.128-130.

(17) Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.26-29 ; Sackur, Sibyllinische Texte, pp. 72-3; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.132-136.

واليونانية مع الرومانية، إنهم: أربع رياح هجمت على البحر الكبير التي شاهدها دانيال» [١٨]. ومن استشـــهاده بعبارة من المزمور الثامن والستين: وتبسط الحبشة يديها مسرعة إعرابا عن خضوعها للرب[١٩]. لقد رأى الكاتب أن الخلاص يجب أن يتم على يد قـــوة ورد لها ذكر في الكتاب المقدس لما قد يتركه ذلك من أثر فعال على قراء نبوءته، ولما كانت بيزنطة غير واردة فيه، وهي في الوقت نفسه القوة الوحيدة المرجو منها التدخل وتغيير الأوضاع، فقد أراد أن يجعلهـــا وريثة لقوة أخرى لها هذا الذكر، وكانت الحبشة بالنسبة له هي القوة المؤهلة لتأدية هذا الدور، خاصة وأن ملكها وقتذاك كان الحاكم المونوفيزي الوحيد المستقل عن السيادة الإسلامية، وربما – كما يقترح مانجو[٢٠] Mango– كان ذلك دافعا للبعض في تعليق آمالهـــم عليه، ولما كانت إمكانية تدخل الحبشـــة في بلاد الشام غير واردة، وبدلا من الانتظار، جاهـــد الكاتب لجعل بيزنطة مرادفة للحبشـــة، ليثبت أن إمبراطورية الرومان والإغريق ذات أصل حبـــشي[٢١]، وأن روما – الآن روما الجديدة باعتبارها وريثة للإغريق والرومان معا- هي الإمبراطورية التي بوضوح ستبســـط يديها خضوعا للرب، وهو الأمر الذي أكده الكاتب نفسه في الفقرة الخاتمة لنبوءته والتي جاء فيها: «إن نبوءة داود – الخاصة ببسط الحبشة يديها- قد تحققت، ذلك أن أولئك الرجال الذين بســـطوا أيديهم إلى الرب من نســـل أبناء كوشات ابنة بيل ملك الحبشة»[٢٢].

وثمة ملاحظة أخرى على هذه القصة، سواء أوردها الكاتب عن قصد أو بصورة تلقائية باعتبارها غدت وقتذاك حقيقة واقعة، انســـجم فيها مع نظرية البيزنطيين السياسية والثقافية باعتبارهم الورثة الشرعيين للإغريـــق والرومان، خاصة بعد ضياع النصف الغربي مـــن الإمبراطورية الرومانية منذ أكثر من قرنين في قبضة القبائل الجرمانية. غير أن الجديد في قصته هو أن البيزنطيين لم يعودوا فقط إغريقا بحكم أن إمبراطوريتهم نشأت وترعرعت على أرض يونانية غرســـت فيها جذور ثقافتهم وحضارتهم، ورومانـاً بحكم أنهم ورثوا الســـلطة الإمبراطورية الرومانية من الوجهة السياسية [٢٣]، بـــل أراد الكاتب كذلك أن يؤكد على أن البيزنطيين هم الورثة الشرعيين للإغريق والرومان معا بحكم انصهار الإمبراطوريتـــين في رباط زواج جمع بين

---

(18)Reinink, Die syrische Apokalypse, p.19; Sackur, Sibyllinische Texte, p. 72; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.132.

النصوص الـــواردة بالبحث بخط ثقيـــل (بولد) هي تلك المقتبسة من العهدين القديم والجديد، وذلك للتمييز بينها وبين النصوص المقتبسة من نبؤة ميثوديوس المجهول.

(19) Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.30–31; Sackur, Sibyllinische Texte, p. 94; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.136.

المزامير ، 31 :68.

(20) Mango, Byzantium, p.206.

(٢١) من المثير للانتباه أن بعض المصادر العربية أشارت إلى الأصل الحبشي للإمبراطورية البيزنطية. فقد كان مسمى «بني الأصفر» أحد المسميات البارزة التي استخدمتها هذه المصادر للإشارة إلى البيزنطيين، وقد فسره ابن الفقيه-على سبيل المثال- على النحو التالي: «سُميت الروم بني الأصفر لأنه لما مات ملكهم لم يبق منهم من يصلح للمُلْك إلا امرأة، فأجمعـــوا أن يملكوا عليهم أول طالـــع من الفج، فطلع حبشي قد أبق من مـــولاه، فأخذوه فزوجوه الملكة، فولدت له ابنا فسُمي الأصفر لأنه من أسود وأبيض». ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص١٤٩. =

Elcheikh-Saliba, N.M., Byzantium Viewed by the Arabs, Ph.D. dissertation: Harvard University, 1992, pp .50–51.

ورغم ما يبدو في هذه الرواية من مســـحة أسطورية واضحة، إلا أنها تتفق مع رؤيـــة نبوءة ميثوديوس ذاتها بشـــأن أصل بيزنطة الحبشي، وإن اختلفت في تفســـيرها لذلك.

(22)Reinink, Die syrische Apokalypse, p.31–32 ,73–74; Sackur, Sibyllinische Texte, p. 94; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.152–153.

(٢٣) عن رؤية البيزنطيين لهويتهم اليونانية والرومانية. أنظـــر: عبد العزيز رمضـــان، « البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية»، المؤرخ المـــصري، العدد ٢٨، يناير ٢٠٠٥م، ص٣٩-٧٤.

بيزنطيا ابنة بيزاس ملك بيزنطة وروملوس ملك روما، ثم جاء نسلهما ليرث العرقين والإمبراطوريتين، وهي مقدمة ربما أراد بها الكاتب الاستدلال على أن الإمبراطور المنتظر، اليوناني – الروماني كما نعته، هو إمبراطور بيزنطة[٢٤].

وبعد هذه المقدمة وهذا التفسير، يواصل الكاتب سرده لبعض الوقائع التاريخية المخلوطة بوحي من الخيال، عن الإسكندر الأكبر ابن فيليب من زوجته الحبشية كوشات، «الذى نُصب ملكا على الإغريق، فشيد الإسكندرية العظمى وحكم بها اثني عشر عاما، ذهب أثناءها إلى الشرق وقتل داريوس ملك الميديين، وغدا حاكما على مدن وأقاليم كثيرة، لقد دك الأرض وذهب بعيدا عبر البحر حتى وصل إلى ما يطلق عليه منطقة مغيب الشمس، حيثما رأى السلالات النجسة ذات الهيئة الكريهة ... فأعطى أوامره وجمعهم جميعا بأطفالهم ونسائهم وكل قراهم، وقادهم بعيدا عن الشرق ليسجنهم خلف الأسوار»[٢٥].

---

(٢٤) يرى Brock أن شجرة العائلة التي ابتدعها الكاتب قصد بها تقديم تفسير لنص المزمور الثامن والستين: وتبسط الحبشة يديها مسرعة إعرابا عن خضوعها للرب. ويرى أن الكاتب لم يكن يقصد الحبشة على الإطلاق، بل قصد الإمبراطورية البيزنطية، خاصة وأن الأخيرة هي الوحيدة التي ستبقى عند نهاية الزمان، وأن ما ستسلمه الحبشة للرب هو ذاته ما سيفعله الإمبراطور البيزنطي في أحداث الفصل الرابع عشر من النبوءة، عندما يضع تاجه على قمة صليب الصلبوت، ويبسط يديه تجاه السماء مسلما التاج والمملكة للرب. Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, ٢٢٣-٢٢٤. . ورغم وجاهة هذا الرأي، إلا أن الكاتب فيما يبدو كان يقصد الإمبراطورية البيزنطية كوريث مباشر لمملكة الحبشة الواردة في الكتاب المقدس، وكوريث لسلطة الممالك الأثيوبية واليونانية المقدونية والرومانية، وهو ما عبر عنه الكاتب بقوله: «عندما يظهر ابن الهلاك، لن يبقي على الأرض من قوة أو سلطة إلا مملكة الإغريق، التي ستخضع للرب وفقا لمقولة الرسول». ولا شك أن شرعية مملكة الإغريق هنا في الخضوع للرب نابعة من كونها وريثا مباشرا لمملكة الحبشة. Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.137-138.

(25) Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.21-26; Sackur, Sibyllinische Texte, p. 73-74; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.132-134.

والكاتب هنا يقصد قبائل يأجوج ومأجوج الذين سيظهرون ثانية في نهاية النبوءة ليؤدوا دورهم في أحداث نهاية الزمان.

ويبدأ الكاتب القسم الثالث من نبوءته، ويتضمن الفصول من العاشر إلى الثاني عشر، و يدور حول ما أسماه « نكبة الإسلام»، ويصف فيه ما زعمه «الدمار» الذي أحدثه الفتح الإسلامي، وراح يوازن بين آلام وبؤس وشقاء عصره و «الارتداد» الذي حدث بولس عنه قبلا[٢٦]. ولما كان هذا الارتداد عند بولس قرين ظهور «الإنسان المتمرد، ابن الهلاك» – المسيح الدجال – الذي سيتبعه عدد كبير من الهالكين، بينما يتمسك آخرون بتعاليم المسيح فيفوزوا بملكوت السماوات[٢٧]، فإن موازنة الكاتب هنا قصد بها الإساءة للإسلام ونبيه، وإثارة مناخ من التشكيك فيه، ربما قصد به إثارة الرهبة في نفوس معتنقيه الجدد من المسيحيين، وتبشير رافضيه بالثواب الإلهي، لزحزحة الأولين وتعضيد الآخرين، ولا شك في أن ذلك موقف طبيعي من رجل كره الإسلام والمسلمين وتمنى زوال سيادتهم، رجل أفزعه دخول عدد كبير من أهل بلاده في الدين الوافد الجديد[٢٨].

---

(26)Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.34-36; Sackur, Sibyllinische Texte, p. 79-80; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.137.

(٢٧) الرسالة الثانية إلى مؤمني سالونيكي، ٢ ؛ الرسالة الثانية إلى مؤمني كورنثوس ، ١١ : ٧-١١

(٢٨) أنظر ما كتبه على الجانب المصري الأسقف= =يوحنا النقيوسي عقب الفتح الإسلامي لمصر: «لكن رحمة الرب تلحق الخسران بالذين يحزوننا، ويجعل حبه للقوم الذين يتغلبون على خطايانا، ويبطل المعاذير الشريرة لمن يسيئون إلينا، الذين لا يريدون أن يملك عليهم ملك الملوك وسيد السادة يسوع إلهنا بحق، وهؤلاء العبيد الشريرين يهلكهم بالشر، كما يقول الإنجيل المقدس: أعدائي الذين لم يريدوا أن أملك عليهم أحضرهم إلي، والآن كثير من المصريين، الذين كانوا مسيحيين كذبا، أنكروا العقيدة المقدسة الأرثوذكسية والمعمودية الحية، وساروا في عقيدة الإسلام أعداء الرب وقبلوا تعاليم محمد، وأخطأوا مع هؤلاء الوثنيين، وأخذوا في أيديهم السلاح وحاربوا المسيحيين». يوحنا النقيوسى، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: رؤية قبطية للفتح الإسلامي، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٢٢.

وانسجاما مع هذا الموقف العدائي راح الكاتب يبالغ إلى حد التطرف في وصف ما أسماه «نكبة» فيقول: «في الألفية الأخيرة، الألف السابعة[٢٩]،ستنمحي الإمبراطورية الفارسية، وفي هذه الألف السابعة ستشرع ذرية إسماعيل في الزحف بعيدا عن صحراء يثرب Ethribus، وسيتقدمون حتى تلتئم حشودهم عند Gabaoth الكبرى، وهناك ستتحقق مقولة حزقيال Ezekiel النبي: أما أنت يا ابن أدم، فهذا ما سيعلنه السيد الرب: قل لكل أصناف الطيور ولجميع وحوش البرية اجتمعي وتعالي، احتشدي من كل جهة حول ذبيحتي التي أعدها لك... تأكلين لحم الجبابرة وترتوين من دماء رؤساء الأرض[٣٠]. على هذا النحو سيمنح المسيح لأبناء إسماعيل القوة والسلطة لغزو أراضي المسيحيين، لا لحبه لهم، وإنما بسبب الخطايا والشرور التي اقترفتها أيدي المسيحيين[٣١]...، فلهذا السبب سيقودهم الرب إلى

(٢٩) تقسم النبوءة تاريخ العالم إلى سبعة آلاف سنة، وتجعل الفتح الإسلامي في الألف السابعة والأخيرة.

(٣٠) حزقيال ٣٩ : ١٧-١٩.

(٣١) من الملاحظ أن المؤرخين السريان اللاحقين نظروا أيضا إلى الفتح الإسلامي على أنه أداة عقاب إلهية للمسيحيين، فوفقا لدراسة Brock المتخصصة التي عالجت رؤية المصادر السريانية للفتح الإسلامي، رأى المؤرخون السريان في الإسلام عقابا للنصارى نتيجة خلافاتهم الدينية واضطهاد البيزنطيين والفرس لأتباع الكنيسة السريانية التي خالفت كنائس الدولتين، فيلاحظ أن نصوص كل من المنافزة والنساطرة والخلقدونيين قدمت الرؤية الخاصة لكل طائفة تجاه الفتح العربي. ففي الوقت الذى يلاحظ في النصوص المونوفزيتية اتجاها عاما نحو اعتبار الفتح العربي للشام عقاباً إلهيا انزل بالبيزنطيين الخلقدونيين نتيجة اضطهادهم للمنافزة، راح النساطرة يفسرونه كعقاب إلهي على الهرطقيتين الخلقدونية والمونوفزيتية، بينما رآه الخلقدونيون الديوثوليتيون عقابا إلهيا بسبب سياسة قنسطانز الثاني الموالية للخلقدونيين المونوثيليتيين. ومع إحياء اللاهوت المونوثيليتي في عهد قسطنطين الرابع راح المؤلف المونوثيليتي لسيرة مكسيموس السريانية يفسر الانتصارات الإسلامية في شمال أفريقيا بأنه عقاب إلهي انزل على كل مكان بسبب بدعة ماكسيموس الديوثوليتية. ورغم اختلاف كل طائفة في تحديد هوية المقصود بالعقاب الإلهي، إلا أنها جميعا اتفقت على نقطة واحدة، ألا وهى اعتبار الفتح العربي عقاب أنزله الرب للانتقام من الطائفة المعادية للأخرى، وأن نهضة العرب ليست إلا أمرا ربانيا مقدرا لتحقيق هذا الانتقام، وهو الأمر الذي يذكرنا بميثوديوس المجهول الذى عَدّ الفتح العربي عقابا إلهيا، ولكنه اختلف عن التفسيرات السابقة في أنه جعل المسيحيين أجمعين هدفا للعقاب بسبب آثامهم وخطاياهم، خاصة الجسدية منها. عن نصوص هذه الطوائف أنظر: ولتر كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ترجمة نقولا زيادة، دمشق، ٢٠٠٢م، ص٢٧٣-٢٧٩.

Brock, Syriac Views, pp.10-12; Kaegi, W.E., "Inital Byzantine Reactions to the Arab Conquest", Church History 38/2(1969), pp.139-149. repr. Idem, Army, Society and Religion in Byzantium, London, 1982, no.XIII; Guenther, A.M., "The Christian Experience and Interpretation of the Early Muslim Conquest and Rule", Islam An Christian Muslim Relations 10/3(1999), pp.363-378.

ووفقا لأحدث دراسة متخصصة باللغة العربية عالجت رؤية المصادر السريانية للفتح الإسلامي، رأى كاتبها أن الخلافات اللاهوتية لم تكن هي العامل الوحيد في صياغة رؤية السريان للفتح بوصفه عقابا إلهيا، بل أرجعها كذلك إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي سادت المنطقة بسبب الحروب البيزنطية-الفارسية، ومن بين النصوص السريانية التي وردت في هذه الدراسة:- رواية الجاثليق إيشويب في منتصف القرن السابع: «إن العرب الهاجريين لم يساعدوا أتباع الطبيعة الواحدة، بل أن هزيمتهم بسبب أخطائهم». ورواية سليمان البصري مؤلف «كتاب النحلة» في القرن الثالث عشر: «وخرج أبناء إسماعيل من صحراء يثرب واجتمعوا في ربوة عالية ومن هناك خربوا ثروات مملكة اليونان، وخرب إسماعيل قضيب الصحراء مملكتي العبريين والفرس، ذلك الذي أرسل بحمية على كل الأرض وعلى البشر وعلى البهائم والأشجار، هذا عقاب قاس، ليس لأن الله أحبهم ووهبهم العلو على ممالك المسيحيين، بل من أجل الظلم والإثم الذي اقترفه المسيحيون». ومن الملاحظ أن العبارة الأخيرة استخدمت تقريبا التعبيرات نفسها التي استخدمها ميثوديوس في تأكيده على أن عقاب الرب للمسيحيين ليس لحبه للعرب المسلمين وإنما بسبب آثام المسيحيين، وهنا تذهب الدراسة المشار إليها سابقا إلى أن المؤرخين السريان ربما تأثروا في رؤيتهم هذه بتفسيرهم لإحدى فقرات العهد القديم بأن سيطرة المسلمين على المسيحيين هو عقاب إلهي مقرر سلفا ورد في الإصحاح السادس عشر بسفر التكوين، حيث يدور حوار بين ملاك الرب وهاجر: «فوجدها ملاك الرب بالقرب من عين الماء في الطريق المؤدية إلى شور(بئر زمزم)، فقال: يا هاجر جارية سارة من أين جئت؟ والى أين تذهبين؟=

الوقوع في أيدي البرابرة والتي عليها سيغرقون في النجاسة ونتانة الدنس، ستدنس نساؤهم بفاحشة البرابرة، سيقيم أبناء إسماعيل القرعة لقتل أبنائهم وبناتهم . ستخضع أراضي الفرس للدمار والتخريب، ويُقاد سكانها نحو العبودية والموت. سيهاجمون أيضا أرمينيا وأولئك الذين يقطنون هناك سيقعون في الأسر بحد السيف.... ستتقوض أرض سوريا وتغدوا خالية، أولئك الذين يسكنوها سيهلكون ويفنون بالسيف....، ستكون مصر والشرق وسوريا تحت نير العبودية ويرزحون فيها بمحنة عظيمة، إنهم سيقيدون دون رحمة، سيُنهب الذهب والفضة، وسيكون سكان مصر وسوريا تحت القهر والاضطهاد، ستكتظ أرض الميعاد برجال من الرياح الرابعة تحت السماء»[٣٢].

ومن الملاحظ أن الكاتب افتتح من قبل «أسطورة الاسكندر» بفقرة وردت في رؤيا دانيال، حلم فيها «بأربع رياح تهاجم البحر الكبير»، ثم يختتم حديثه في القسم الثالث «نكبة الإسلام» بنفس المصطلح الدانيالي، عندما تحدث عن اكتظاظ أرض الميعاد برجال من الرياح الرابعة، وهى إشارة صريحة للمسلمين، ومعنى ذلك أن الكاتب أراد أن يطوع

= فأجابت: إنني هاربة من وجه سيدتي سارة، فقال لها ملاك الرب: عودي إلى مولاتك واخضعي لها، وقال لها ملاك الرب: لأكثرن نسلك فلا يعود يحصى، وأضاف ملاك الرب: هو ذا أنتِ حامل وستلدين ابنا تدعينه إسماعيل (ومعناه الله يسمع)، لأن الرب قد سمع صوت شقائك، و يكون إنسانا وحشيا يعادى الجميع والجميع يعادونه، ويعيش مستوحشا متحديا كل إخوته». لمزيد من التفاصيل ينظر: صلاح عبد العزيز محجوب، «ظهور الإسلام وانتشاره من خلال مصادر التاريخ السريانية المسيحية»، المؤرخ المصري، العدد٢٧، يناير ٢٠٠٤م، ص ٤٧-٤٨، ٤٩-٥٠. والجدير بالذكر أن هذه الدراسة رغم اعتمادها على عدد من المصادر التاريخية السريانية، إلا أنها لم تشر قط إلى مؤلف ميثوديوس المجهول. وماثل فكرة =العقاب الإلهي عند ميثوديوس بما كتبه الأسقف القبطي يوحنا النقيوسي عقب الفتح الإسلامي لمصر: «كان كل الناس يقولون: هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين ..، وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر». وكذلك قوله: «تضمن -هذا الكتاب- الأسرار الإلهية والعجائب العالية التي أصابت منكري الإيمان في وقت تزلزلت الأرض بسبب إنكاره، وهلكت نيقية المدينة العظيمة، وسقطت النار من السماء، وفى وقت أظلمت الشمس من ساعات الصباح حتى المساء، وفى وقت ارتفعت الأنهار وأغرقت قرى كثيرة، وفى وقت تهدمت البيوت، وهلك ناس كثيرون وسقطوا في عمق الأرض، وهذا كله كان بسبب أنهم قسموا المسيح إلى طبيعتين، وجعله بعضهم مخلوقا، وزال تاج المملكة عن ملوك الروم وتسلط عليهم الإسماعيليون، لأنهم لم يسيروا بالإيمان الحق بسيدنا يسوع المسيح، وقسموا من لا ينقسم». يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر، ص٢٢٠ ، ٢٢٣. وفكرة العقاب الإلهي عبر عنها أيضا صفرونيوس بطريرك بيت المقدس زمن الفتح الإسلامي، عندما اعتبره عقابا إلهيا نتيجة لخطايا المسيحيين الأخلاقية. ٣٣٠ . ومن Constantelos, Moslem Conquests, p. الملاحظ أن ميخائيل السريانى بطريرك إنطاكية في القرن الثاني عشر، رغم شهادته بتسامح الإسلام مع مسيحيي الشرق واعتباره خلاصا لهم من أيدي الروم بقوله: «إن الله اله النقمة الذي وحده له السلطان على كل شيء، هو الذي يغير الملك كما يشاء ويعطيه لمن يشاء، ويقيم عليه الضعفاء، إذ رأى خيانة الروم الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا كلما اشتد ساعدهم في الحكم، ويقاضوننا بلا رحمة، جاء من الجنوب بأبناء إسماعيل، لكي يكون لنا الخلاص من أيدي الروم بواسطتهم، أما الكنائس التي كنا قد فقدناها باغتصاب الخلقيدونيين إياها، فبقيت بيدهم، لأن العرب، لدى دخولهم المدينة، أبقوا لكل طائفة ما بحوزتها من الكنائس، غير أن فائدتنا لم تكن يسيرة،

=حيث أننا تحررنا من خبث الروم ومن شرهم وبطشهم وحقدهم المرير علينا، وتمتعنا بالطمأنينة»، إلا أنه ردد فكرة العقاب الإلهي بقوله: «ومهما تحدثنا عن المآسي التي قاستها منطقة سوريا، فسنظل عاجزين عن الحديث عن جميعها لكثرتها، لأن هذه الضربات كانت نتيجة غضب الله». وقوله أيضا: «فأصيب المسيحيون بخيبة أمل وتساءلوا، لماذا سمح الله بهذا؟ وإذا تمعن أحد بالأمر لأدرك أن العدالة سمحت بذلك، لأن المسيحيين أخذوا يمارسون السكر والشراهة والرقص وغيرها من المغريات الفاجرة في أعياد الشهداء، بدلا من الصوم والصلاة والسهر والترتيل، فيغضبون الله الذي بعدل يؤدبنا ويبكّتنا». تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، ج٢، تعريب مار غريغوريوس صليبا شمعون، حلب، ١٩٩٦م، ص٣٠٢، ٣١٥، ٣١٦.

(32) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.40-47; Sackur, Sibyllinische Texte , p. 81-83; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.139-145; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, pp.230-232.

رؤيا دانيال الرمزية الواردة في العهد القديم لخدمة غرضه الأساسي في نبوءته، فالرياح الأربع التي هاجمت البحر في رؤيا دانيال أعقبها خروج أربعة حيوانات عظيمة على التوالي، كان آخرهم أشدهم قوة، سحق الثلاثة الآخرين وجردها من سلطانها، ولكنها وهبت البقاء على قيد الحياة إلى حين[٣٣]. وقد فُسر هذا الحلم في رؤيا دانيال بأن «هذه الحيوانات الأربعة العظيمة هي أربعة ملوك يظهرون على الأرض ....، وأن الحيوان الرابع هو رمز للمملكة الرابعة على الأرض، وهي تختلف عن سائر الممالك لأنها تستولي على كل الأرض وتخضعها وتسحقها»، ثم يأتي المسيح ويعقد مجلس القضاء «فيجرد- الملك الرابع- من سلطانه فيُدمر ويُفنى إلى المنتهى، وتُوهب المملكة والسلطان وعظمة الممالك القائمة تحت كل السماء إلى شعب قديسي العلي»[٣٤].

هكذا استخدم الكاتب رؤيا دانيال ليوحي لمسيحيي عصره بأنها تحققت، وأن الوحش الرابع الذي سحق سلطان الثلاثة وحوش الأخرى، هو إمبراطورية الإسلام في مواجهة الإمبراطوريات الفارسية والمقدونية-اليونانية والرومانية، وطالما أن الجزء الأول من الرؤيا قد تحقق، فلا شك في أن تحققها كلها بات أمرا مقدرا. ويبدو أن لجوء الكاتب إلى توظيف رؤيا دانيال يدعم ما ذُهِب إليه قبلا من رغبة أكيدة وقوية لديه لإضفاء هالة من القداسة ومن ثمّ المصداقية الدينية على نبوءته، ومن ثمّ يستطيع أن يصبو إلى هدفه الأساسي وهو محاربة الإسلام في شخص معتنقيه الجدد من المسيحيين وتعضيد المتمسكين بالمسيحية، كما أنه يعكس محاولة للتخفيف من الشعور بالإحباط والفشل، لاسيّما في ظل عجز السلطة السياسية البيزنطية، وبث الأمل في نفوس أقرانه من الكارهين للسيادة الإسلامية.

وإذا كان الكاتب قد صاغ نبوءته في قالب دانيالي، فإنه خطى لأبعد من ذلك لإضفاء المصداقية عليها، وهو الأمر الذي نلاحظه في القسم الثالث، حيث استخدم فيه الأفعال في صيغة المستقبل، وكأنه أراد أن يوحي لمعاصريه بأن هذه النبوءة من زمن ماض، وأنها إذا كانت قد تنبأت بسيادة بني إسماعيل، وهو ما تحقق بالفعل ورأوه رؤية العين، فستكون أكثر تأثيرا عليهم بشأن الجزء الذي لم يتحقق والخاص بأن تدمير الإسلام في سبيله إلى التحقيق مستقبلا، وليس من المعروف إلى أي حد أدرك المعاصرون قدم أو معاصرة هذه النبوءة.

وفي الوقت الذي صاغ الكاتب القسم الثالث في قالب دانيالي، فإنه في القسم الرابع طور نبوءته، وأدخل عليها عنصرا جديدا لم يرد في رؤيا دانيال، فالمخلص هنا لم يعد المسيح ذاته، وإنما غدا إمبراطور بيزنطة «ملك الإغريق» أو «الإمبراطور البيزنطي الأخير». ولاشك في أن هذا التطوير يتواءم مع عِظم الهزيمة والفشل الذي حل بالإمبراطورية البيزنطية في الشرق، وما أصاب هيبتها العالمية من زعزعة شديدة، وبوصفه رد فعل سريع ومباشر للهزيمة أراد الكاتب أن يكون المنتقم من نسل أباطرة هذه الإمبراطورية الجريحة، ربما لإعادة جزء من الهيبة التي فُقِدت في نظر مسيحيي الشرق، أو للتأكيد على أن الانتقام من بني إسماعيل يجب ألا يغادر إمبراطور بيزنطة الذي تجرع مرارة كأس الهزيمة في الشرق على يد المسلمين، يقول الكاتب: «وبعد تلك الكوارث والضربات لبني إسماعيل[٣٥]وعند نهاية هذا الأسبوع[٣٦]، وقتما سيكون الناس مستسلمين

(٣٣) دانيال، ٧: ١- ١٢ .

(٣٤) دانيال، ٧: ١٥-٢٧.

(٣٥) من الجدير بالذكر أن الكاتب استخدم في كثير من المواضع مسمى «الحمار الوحشي الصحراوي» ملازما لاسم إسماعيل، ولاشك في أنه تأثر في استخدامه هذا بالنص السرياني للعهدين القديم والجديد، حيث ورد فيه ما نصه: «وأنه يكون إنسانا حمارا يده على الكل ويد الكل عليه، ويسكن أمام كل أخوته»، وهى الفقرة التي درسها حديثا الدكتور صلاح عبد العزيزمحجوب بالمقارنة مع النص العربي: «وأنه يكون انسانا وحشيا، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن»، وخلص إلى أن هذا المسمى لوصف إسماعيل وبنيه بالتوحش جاء كإشارة تنبوئية وردت في العهد القديم عن صراع سيحدث في المستقبل بين=

لمعاناة العقـــاب، من دون أمـــل في الخلاص من عبوديتهم الثقيلة، سيكونون مضطهدين مقهورين يعانون الآلام والجوع والظمـــأ، في الوقت الذي ســـينعم أولئك البرابرة الطغاة بالطعام والشراب والراحة، سيتباهون بنصرهم، وكيف أنهم دمروا فارس وأرمينيـــا وقيليقية وايزوريـــا وقبادوقيا وإفريقيـــا وصقلية وهيلاس والأجـــزاء المأهولة بالســـكان من بلاد الرومان وكافـــة جزر البحر، وسيرتدون كالعرســـان ويتزينون مثل العرائس، ويتطاولون بقولهم «ليس للمسيحيين مخلص»، عندئذ ستنهض ضدهم فجأة أوجاع المحن والبلايا مثل المرأة في المخاض، سيخرج ملك الإغريق ضدهم بغضب عظيم، ينهض وكأنه يســـتيقظ من سبات المخمور كذلك الذي اعتقد الرجال أنه ميت وعديم القيمة، سيتقدم ضدهم من البحر الأثيوبي (البحر الأحمر) وسيرســـل الســـيف والدمار إلى صحراء يثرب Ethribus موطن أجدادهم، وســـيهبط بنو الملك من الأقاليم الغربية ليدمروا بســـيوفهم من تبقى منهم في أرض الميعاد، ســـيحيطهم الخوف من كل صوب، وسيغدون هم وزوجاتهم وأبناؤهم وقادتهـــم وخيامهم في صحـــراء أجدادهم تحت سلطة ملك الإغريق، وبالسيف سيقودهم إلى الآسر والموت والبلاء»[٣٧].

ومـــن الملاحظ أن الكاتب عمد هنا إلى اســـتخدام صورة مجازيـــة من المزامـــير في وصف ظهور الإمبراطور الأخير، للتأكيد على عنصر المفاجأة لهذا الظهور، في الوقت الذي يأنس المسلمون في أنفسهم قوة ويركنون إلى الطمأنينـــة وحياة الرفاهية من دون أدنى توقع لهجوم بيزنطي فعال، ولا شـــك أيضا في أن الكاتب عند اســـتخدامه هذه الصورة كان واعيا ومدركا لدلالاتها الكريستولوجية، ومن ثمّ ربمـــا أراد أن يوجه قرائـــه إلى إقامة نوع من المماثلة بين المســـيح الذي استيقظ «كما يستيقظ النائم مثـــل جبار يصرخ عاليا من الخمر، فضرب أعداءه وقهرهم وجعلهم عـــارا مدى الدهر»[٣٨]، وبـــين الإمبراطور الذي «اعتقـــد الرجال أنه ميت وعديم القيمة»، لكنه سينهض ليهزم المسلمين[٣٩]. وليس من قبيل المصادفة أن يجعل الكاتب الظهور

=إسماعيل وبين إخوته، وقرن بين هذه الفقرة وفقرات أخرى تشـــير إلى اصطفاء الرب ووعده الأبدي لإســـحق ونسله وتفضيلهم على نسل إســـماعيل، وكيف أن بنيه يمثلون العقاب الإلهي المســـتقبلي للمســـيحيين. وعلى ذلك يمكن اعتبار هـــذا الوصف وما يحتويه من دلالات وخلفيات مرتبطة بالعهد القديم، جزءا من خطة عامة لكاتب نبـــوءة ميثوديوس في صياغـــة نبوءته بمزجها بسلســـلة من الرؤى المســـتوحاة من التوراة والإنجيل، لإقنـــاع قرائه بنبوءتـــه، ولإضفاء قدر مـــن المصداقية الدينيـــة على أمور غيبية لم تتحقـــق على ارض الواقع. لمزيد من التفاصيل أنظر: صـــلاح عبد العزيز محجوب، «قصة إســـماعيل في العهد القديم واستيعابها في الأدب السرياني المســـيحي: رؤية وصفية»، بحث منشـــور في كتاب الآخـــر في الفكر اليهودي، جـ٣: الآخر من المنظور الديني والفلســـفي، القاهـــرة، ٢٠٠٦م ، ص٩١-١٠٩. وأنظر الدراســـة المتخصصة التي وضعها رينينك حول هذه الزاوية تحديدا:

Reinink, G.J., « Ismael, der Wildesel in der Wüste zur Typologie der Apokalypse des Pseudo-Methodios», Byzatinische Zeitschrift 75(1982) , pp.337-344.

(٣٦) يحـــدد الكاتب فترة الســـيادة الإســـلامية بعشرة أســـابيع من السنين، أي ســـبعين ســـنة، ربما تبدأ كما يقـــترح رينينـــك بعـــام ٦٢٢م، وبالتالي فـــإن «نهاية هذا الأســـبوع»، وهـــو الأســـبوع الأخير مـــن العشرة أســـابيع من الســـنين، يمكـــن تحديدها بعـــام ٦٩٢م. ينظر: Reinink, Ps.-Methodius ,n.2 p.150

(37) Reinink, Die syrische Apokalypse, pp.59-63; Sackur, Sibyllinische Texte , p.89-90; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.148-149; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, pp.237-238.

مـــن الملاحظ أن نبوءة «انجيل الرســـل الإثني عشر» التي كتبت أوائـــل القرن الثامن، وتأثـــرت بنبوءة ميثوديوس، قدمت الرؤية نفسها بأن إمبراطور المسيحيين سيأتي من الشمال ويدمر مملكة المسلمين.

Drijvers , Gospel of twelve Apostles , p.210.

(38) المزامير، 78: 65.

(39) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.62 ;Idem, Ps.-Methodius,153; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.149; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.237.

الفجائـــي للإمبراطور نتيجة مبـــاشرة لتطاول المسلمين على المســـيح بقولهم : «ليس للمسيحيين مخلص»[٤٠]، إذ يبدو أنه أراد إضفاء صبغة دينية على الصراع البيزنطي-الإسلامي والتأكيد على أن الفتح الإســـلامي لم يستتبع قهرا وتبعية سياسية فقط، بل كرها وإنكارا للمســـيحية، ومن ثم فإن عقده لهذه المماثلة بين المسيح ونهوض الإمبراطور الأخير هو نوع من الربط بين الدين والسياسة، أو بمعنى آخر التأكيد على أن الانتقام هنا لن يستتبع انتصارا سياسيا فقط ، بل هو أيضا ثأر للمسيح والمســـيحية من المتطاولين عليهما، وعلى ذلك فإن مقولة «ليس للمســـيحيين مخلص» التي أُلصقت بالمسلمين، واقترانها بالظهور المباشر للإمبراطور تومئ – كما يشـــير رينينك - إلى محاولة الكاتب التأكيد على أن الإمبراطـــور المنتظر ليس مخلصاً سياسياً فقط، بل هو أيضا مخلص ديني[٤١].

ويبدو أن الكاتب هنا أراد أن يشرك مع الإمبراطور الأخير في مهمة الانتقام من المســـلمين طرفا أخر أطلق عليه «بنو الملك من الأقاليـــم الغربية»[٤٢]، ويعتقد رينينك أن المؤلف يقصد بهذا المسمى بني الملك على الإطلاق، أي شعبه التابع ، بوصفه مسمى مماثلاً ومقابلاً لمســـمى «بني إســـماعيل» الذي استخدمه مرارا للإشـــارة إلى المسلمين[٤٣]. ورغم اتفاق الباحث مع هذا الرأي إلا أنه يختلف معه في المدلول أو الشعب الذي عناه المؤلف به، إذ يبدو أنه لم يقصد به البيزنطيين –كما يذهب رينينك[٤٤]– بل ربما قصد به شعوب الغرب الإمبراطوري نفسه، والتي أضحت في ذلك الوقت جرمانية، وربما كان هذا الرأي لا يتفق والأمر الواقع بحكم أن الجرمان لم يرتبطوا بالإمبراطور البيزنطي بصلات عرقية أو حضارية، غير أن الكاتـــب هنا ربما لم يقصد هذه الصلات بعينها، بقدر اهتمامه بصلة التبعية –حتى وإن كانت اســـمية– التي ربطت الشـــطر الغربي الجرماني بالإمبراطورية الشرقية، لاسيما و أنه كما ذُكر قبلا، كان يعبر عن المفهوم السياسي البيزنطي حول نظريـــة العالمية الرومانية، وربما يدعم هذا الرأي أن عـــددا من النبوءات البيزنطية والغربية الآتية كنبـــوءة الصقلي المجهول في أوائل القرن التاســـع[٤٥] ونبـــوءات القديس أندروس سالوس في القرن العاشر[٤٦]، والتي تأثرت بنبوءة ميثوديوس المجهول، كرست دورا بارزا للجرمان،

(40) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.60; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p. 149; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.237.

(41) Reinink , Ps.-Methodius,153.

(42) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.63; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.149; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo-Methodius, p.237-238.

(43) Reinink, Ps.-Methodius, p.151n.8.

(44) Reinink, Ps.-Methodius, p.151n.8.

(٤٥) في عام ٨٢٠م تقريبا؛ اســـتخدم متنبئ صقلي نبؤة ميثوديوس المجهـــول، ولكنه قدمها بلمســـات جديدة، فالإمبراطور الأخير هنا سيظهر في سيراقوزة Syracuse، وسيرسل سفاراته إلى «المناطق الداخلية من روما ويروض الشـــعوب ذات الشعر الأشقر، وســـيطاردون معا أبناء إسماعيل»، وفي روما سيعثر الإمبراطور على كنز مدفون يكفي لإعداد جيوشـــه، ثم يســـير برا إلى القسطنطينية، وعندئذ ســـيظهر المســـيح الدجال. وأحد المظاهر المهمة لهذه النبوءة هي أنها نسبت إلى الشعوب الجرمانية دورا في أحداثها.

.Mango, Byzantium, 207

(٤٦) أشارت سيرة القديس أندروس سالوس إلى الشعوب الجرمانية (شعوب الشعر الأشقر) وأن لم توضح دورها في القضاء على المسلمين. ففي الحوار الذي دار بين القديس أندروس وتلميذه ابيفانيوس Epiphanius، ســـأل الأخير: «كيف ســـينتهي العالم؟ وما هي علامات النهاية؟ وماذا ســـيحدث لهذه المدينة، أورشـــليم الجديدة، ولكنائسها المقدســـة وصلبانها وأيقوناتها وكتبها وأثار قديسيها؟»، وأجاب القديس: «بالنسبة لمدينتنا، عليك أن تعلم أنه حتى نهاية الزمـــان لن تخشى أي عدو، لـــن يحتلها أحد، فقد عُهد بها إلى العذراء ولن ينتزعها أحد من يديها، ستهاجم أســـوارها شـــعوب كثيرة، لكنها لن تحقق شـــيئا سوى كـــسر قرونها والرحيل بالعار، بينمـــا نحصل على ثروات عظيمة منهم. وستسمع الآن عن «بدايات المحن» ونهاية العالم، ففي الأيام الأخيرة سينهض المسيح إمبراطورا من الفقر وسيســـير على طريق الصلاح، سيضع نهاية لكل=

وإن أطلقت عليهما مسمىً آخر هو «شعوب الشعر الأشـــقر»، وإذا كان الكاتب يقصد الجرمان فإن ذلك يعكس أمله في تعاونهم مع الإمبراطور لضمان نجاح مهمته، أو ربما مثلـــت محاولة منه أو من سادته لمغازلة شـــعوب الغرب الجرمانية في وقت باتت الإمبراطورية عاجزة عـــن التصدي للخطر الإسلامي وحدها.

كذلـــك؛ تتجلى في هذه الفقرة نـــبرة الانتقام التي صبغت القســـم الأخير من النبـــوءة، فقد أطلق الكاتب العنان لمشـــاعر الكراهية والعداء للإسلام و المســـلمين إلى حـــد جعله يظهر مـــا يعتمل في نفسه بقوة إلى حد الاندفاع في إسباغ صفة العنف والقسوة بل والتطرف للأسلوب الذي سيتم به هذا الانتقام، وهو الأمـــر الذي عبر عنه صراحة عندما وصفه بقوله: «سيفوق البلاء الذي يفرضه عليهم ملك الإغريق سبعة أضعاف ذلك البلاء الذي أنزلوه بالأرض، سيكونون في محنة عظيمة، سيتضورون عطشا وجوعا، ســـيقعون ونساؤهم وأطفالهم في نير العبودية ليخدمـــوا أولئك الذين خدموهم من قبل، وستكون عبوديتهم أشد قسوة وصعوبة مئة مرة»(٤٧).

وإذا كان ظهور الإمبراطور البيزنطي الأخير مقترنا بالقضاء على عالم الإسلام، فقد كان الكاتب أيضا حريصا على أن يجعل ظهوره قرين السلام الذي ســـيحل على العالم بأسره، وكأنه أراد هنا أن يقيم علاقة تناقضية بين الإسلام والسلام، وهو ما عبر عنه بوضوح بقوله: «ستكون الأرض التي خربوها – يقصد المســـلمين – عندئذٍ في سلام، سيعود كل رجل إلى أرضه وإرث آبائه، إلى قبادوقيا وأرمينيا وقليقية وأيزوريا وإفريقيـــا واليونان وصقلية. كل شخص غادر الأسر ســـيرجع إلى الأشياء التي كانت له ولأجداده، وسيتناســـل الناس كالجراد على الأرض المقفرة. ســـتُخرب مصر، وتُحرق شبه الجزيرة العربيـــة Arabia بالنار، وتحرق أرض العبرانيين، وســـتهدأ أقاليم البحر. وبذلك سيُنزل ملك الإغريق جل سخطه وانتقامه على أولئك الذين أنكروا السيد المســـيح يسوع، عندئذ سيحل سلام لم تشـــهده الأرض قبلا أو بعدا، فذلك هو السلام الأخير عند نهاية الزمان»(٤٨).

وإذا كان ظهور الإمبراطور البيزنطي الأخير قرين الســـلام بما يحتويه من خير ونماء وتناسل، فقد عمد الكاتب إلى استثناء فئة بعينها من هذا السلام، هـــم أولئك الذين أنكروا المســـيح، أو بمعنى أخر أولئك الذين ارتدوا عن المسيحية ودخلوا الإسلام، ومن دون تكرار مـــا ذُكر قبلا عن دافعية الكاتب لذلك، فمن الواضـــح أن مبرر الكاتب كان جليا في تخصيصه لشـــبه الجزيرة العربيـــة بالدمار على أساس أنها منبع الإســـلام، أما تضمينه مصر فلا

=الحروب، سيثرى الفقراء، وستبدو تلك الأيام كأيام نوح Noah، سيعيشون في سلام، يأكلون ويشربون، يتزوجون ويتناسلون. بعدئذ سيدير الإمبراطور وجهه نحو الشرق وسيذل أبناء هاجر Sons of Hagar، لأن المسيح سيكون غاضبا للغايـــة من كفرهـــم وتعريضهم بمقدســـاته، سيبيدهم الإمبراطور ويشوى أطفالهم في النار، وسيستعيد إلليريا للإمبراطورية الرومانية، وستحضر مصر جزيتها ثانية، وســـيضع يده اليمنى على البحر ويخضع شعوب الشعر الأشقر ويذل كل أعدائه، وسيستمر عهده ٣٢ عاما، وفي هذه الأيام ســـيظهر كل الذهب المخفي بإرادة المسيح وسيوزعه الإمبراطور بين رعيته، سيغدو نبلاؤه كالأباطرة في ثرائهم، والفقراء كالنبلاء، وبحماس شـــديد سيضطهد اليهود، ولن يترك إســـماعيليا (عربيا) واحدا في المدينة، لن يلعب أحد القيثارة أو ينشـــد الأغانـــي أو يقترف أي عمل مخز آخر، لأنه سيبغض كل أولئك الرجال وسيجتثهم من مدينة المسيح».

The Life of St. Andrew the Fool, ed.& trans. L. Rydén, Uppsala, 1995, pp. 258–285; Rydén, L., «The Andreas Salos Apocalypse: Greek Text, Translation and Commentary», Dumbarton Oaks Papers 28(1974), pp.199–261.

(47) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.64; Sackur, Sibyllinische Texte, p.90; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.149; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo–Methodius, p.238.

(48) Reinink, Die syrische Apokalypse , pp.64–65; Sackur, Sibyllinische Texte, pp.90–91; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.150; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo–Methodius, pp.238–239.

شك في أنه يعكس غضب الكاتب وسخطه الكاتب من الموقف شـــديد الإيجابية لمسيحيي مصر تجاه الإسلام وقت الفتح.

وبعد القضاء على الإســـلام يواصل الكاتب نبوءته بالحديث عن المصير الذي ســـيؤول إليه العالم في أحداث نهاية الزمان، مستوحيا بعضها من الكتاب المقـــدس، ومضيفا دوراً للإمبراطـــور البيزنطي الأخير فيهـــا، فيعيد إلى الأذهان حديثه الســـابق عن القبائل الشمالية والإســـكندر الأكبر، فيقول: «عندئذ ســـتنفتح «أبواب الشمال» وستنطلق قوة تلك الشـــعوب التي كبحها وأغلق عليها الإسكندر من قبل، ســـترتاع الأرض كافة لمرآهم، ســـيرتعد أعتى الرجال ويفرون للاختباء بالجبال والكهوف، سيموت الكثيرون من شدة الخوف دون أن يجدوا من يواري أجســـادهم، ســـتأكل القبائل القادمة من الشـــمال لحم البشر وتـــشرب دماء الوحوش كما تشرب الماء ...، ســـينتزعون الأجنة من أرحام أمهاتهم ليأكلونها، سيعيثون في الأرض فسادا ولن يجرؤ أحد على أن يقف في وجوههم، وبعد ســـبع سنوات سيرسل المسيح مَلَكًا من جنوده فيصرعهم على الفور»[٤٩].

وأخيرا يصل الكاتب إلى نهاية أحداث نبوءته، جاعلا مسرحها في فلســـطين، بقوله: «بعد ذلك سيذهب ملك الإغريق إلى أورشـــليم ليعيش بها أســـبوعا ونصف (عشر ســـنوات ونصف). بعدها سيظهر ابن الهلاك، ســـيولد في كورزيـــن Chorazain، وينشـــأ في بيت صيـــدا Bethsaida، ويحكم في كفر ناحوم Capharnaum. ستُسَر كورزين لأنه وُلد بهـــا، وكفر ناحوم لأنه حكم بها. ولذلك يقول المسيح في الإنجيل: الويل لك يا كورزين، الويل لك يا بيت صيدا ...، وأنت يا كفر ناحوم، هل ارتفعت حتى السماء؟ انك إلى قعر الهاوية ستهبطين»[٥٠].

ويســـتأنف الكاتب حديثه عن الإمبراطور الأخير بقوله: «ســـيصعد ملك الإغريق جبل Golgotha الذي عليه خشبة الصليب المقدس، في المكان الذي شهد فيه المســـيح الموت من أجل خلاصنا، سيرفع التاج من فوق رأســـه ويضعه على قمة الصليب، ويبسط يديه إلى السماء مسلما مملكة المسيحيين للإله الأب. عندئذ ســـيرتفع الصليـــب بالتاج إلى الســـماء، ذلك أن الصليب ســـيظهر أمام المسيح عند مجيئه لإقناع ضعاف الإيمان»[٥١]، وعند هذه النقطة يعود الكاتب ليعيد إلى الأذهان روايته عن الأصل الحبـــشي لإمبراطور بيزنطة، مؤكدا على أن نبوءة داود الخاصة ببسط الحبشة يديها للرب قد تحققت على أيدي الإمبراطور الأخير الحبشي الأصل لكونه من نسل كوشات الحبشـــية، عندما بسط يديه إلى الرب، ثـــم يختتم نبوءته بقوله : «وعندما يرتفع الصليب لأعلى إلى الســـماء، ستصعد بعده مباشرة روح ملك الإغريق، وعندئذ ســـتُدمر كل إمارة وسلطة لأن ابن الهلاك سيظهر»[٥٢] .

ومن ناحية أخر ؛ يبدو أن الكاتب استوحى صورة تخلى الإمبراطور الأخير عن تاجه، وبسط يديه إلى السماء مسلما مملكة المســـيحيين للإله الأب، من صورة رمزية مماثلـــة في العهد الجديد حدث بها بولس في رسالته الأولى لمؤمني كورنثوس ، عندما

(49 Reinink, Die syrische Apokalypse, p.69 ; Sackur, Sibyllinische Texte, p.92–93; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.151; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo–Methodius, p.239.

وعن يأجوج ومأجوج في العهدين القديم والجديد، ينظر: حزقيال، ٣٨ :١–٢٣، ٣٩: ١–١٧؛ يوحنا، ١٩: ١٧–١٨؛ متى، ٢٠: ٧–١٠.

(50) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.69–70 ; Sackur, Sibyllinische Texte , p.93; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, pp.151–152; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo–Methodius, pp.239–240.

لوقا، 10: 15–13.

(51) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.71–73; Sackur, Sibyllinische Texte, p. 94; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.152.

(52) Reinink, Die syrische Apokalypse, p.73; Sackur, Sibyllinische Texte, p.94; Martinez, Eastern Christian Apocalyptic, p.153; Brock, An Extract from the Apocalypse of Pseudo–Methodius, p.240–241.

يسلم المسيح المُلْك للإله الأب بعد أن يكون قد أباد كل رئاسة وكل سلطة وكل قوة[٥٣]. ولما كان تسليم المسيح للملك مقترنا بقضائه على المسيح الدجال، فلا شـــك في أن الكاتب أراد هنا أن يوحي للقارئ بمماثلة بين المســـيح وقضائه على المسيح الدجال وتخليه عن المُلْك، وبين الإمبراطور الأخير وقضائه على الإسلام وتســـليمه مملكة المسيحيين، وبما أن تلك لم تكن المماثلة الأولى بين المسيح والإمبراطور البيزنطي الأخير من ناحية، والإســـلام والمســـيخ الدجال من ناحية أخرى، فلا شـــك في أنها تؤكد ما ذُهب إليه قبلا مـــن إصرار الكاتب على إضفاء الصبغة الدينية عـــلى مهمة الإمبراطور الأخير من ناحية، والإساءة إلى الإسلام من ناحية أخرى.

هكذا؛ عبرت نبوءة ميثوديوس المجهول عن كراهية أحد رجال الدين السريان للإسلام ورفضه للسيادة الإسلامية عقب الفتح مباشرة، وأمله في أن تنهض الإمبراطورية البيزنطية ثانية للقضاء على تلك القوة الفتية الجديدة. وعند هذه النقطة يُثار أمر جدير بالملاحظة، هو أن نبوءة ميثوديوس المجهول كانت تشكل جزءاً من إطار عام عكسته العقلية الشرقية المعادية للفتح العربي، وانعكس في عدد من نصوص القرن السابع الميلادي، وهي نصوص مزجت بين الأحداث المعاصرة والنبوءة، أو بعبارة أخرى كيفت الوضع الراهـــن للعصر في قالب ابوكاليبسي، وهنا نرجع بالذاكرة إلى روايـــة ميثوديوس عن تعاقب الممالك والوحش الرابع الذي يســـود العالم، التي اقتبســـها وتأثر بها برؤيا دانيال، فالواقع أن هذا الاستخدام لم يكن اســـتثناءً على ميثوديوس، بل يمكن القول بأنه غدا عقيـــدة تقليدية في العقلية المعادية للإســـلام. ففي عـــام ٦٣٤م وبعد الفتح العربي مباشرة راح صوفرونيوس Sophronios بطريرك بيت المقدس يعـــبر عن رأيه في أن الفتح العربي لبيت لحـــم عقاب إلهي على خطيئة يمكن التكفير عنها، ولذلك راح يقول: «علينا فقط التوبة، عندئذ سنكل سيف بنى إسماعيل، وسنكسر قوس أبناء هاجر، ونرى بيت لحم ثانية»[٥٤]. وفى خطاب مؤرخ بالفترة ٦٣٤-٦٤٠م تحدث ماكســـيموس المعترف عن «شعب الصحراء البربري» الذي ساد أرضا ليست له، وألمح إلى أن ظهور المسيح الدجال بات أمرا وشـــيكا[٥٥]. وفى الوقت ذاته راح مصدر سرياني ثالث لكاتب مجهول يصوغ أحداث الفتح العربي في قالـــب دانيالى، وظلـــت الإمبراطورية الرومانية «البيزنطية» تمثـــل الوحش الرابع[٥٦]. وفى نهاية القرن راح سيبيوس الأرمني يقدم تأويلا آخر لرؤيا دانيال، عندما أحل بنى إســـماعيل محل الإمبراطورية الرومانية كوحش رابع[٥٧]. وفي أوائل القرن الثامن الميلادي اعتبرت نبوءة «انجيل الرسل

(٥٣) الرسالة الأولى لمؤمني كورنثوس، ١٥: ٢٤.

(54) Brock, Syriac Views, p.9; Constantelos, Moslem Conquests, 328-329; Kaegi, Byzantine Reactions, pp.140-141; Guenther, Christian Experience,pp.366-367.

(55) Brock, Syriac Views, 9; Kaegi, Byzantine Reactions, p.142.

(56) Arendzen, J.P., "A New Syriac Text of the Apocalyptic Part of the Testament of the Lord", Journal of Theological Review 2(1901), pp.401-416; Kaegi, Byzantine Reactions, p.141.

وعنوان هذا المصدر

Doctrina Jacobi nuper baptizati،

وهـــو عبارة عـــن محـــاورة دارت في ١٣ يوليـــو ٦٣٤م بـــين يعقـــوب المتنصر حديثـــا وبعـــض اليهود (٥٧) رتب ســـيبيوس الممالك الأربـــع المتعاقبة بمملكة الإغريق ثـــم مملكة الفرس، ثم مملكة الشـــمال يأجوج ومأجوج، ثم مملكة العرب، فيقول: «من ذا الذي يمكنه وصف الكارثـــة المخيفة لقطاع الطرق الإســـماعيليين الذين أشعلوا النار في البر والبحر. لقد تنبأ دانيال المبارك مبكـــرا بتلك الكارثة التي حلت بالأرض من خلال أربعة وحوش تجســـد أربع ممالك تظهـــر على الأرض. الأولى مملكة الغرب، وحش في هيئـــة بشرية، تلك هي مملكة الإغريـــق. أما الثانية فهي كالـــدب تأتي من الشرق، و يقصد بها المملكة الساســـانية. والثالثة كالنمر ويقصد بهـــا مملكة الشـــمال يأجوج ومأجـــوج. أما الوحش الرابـــع فهو مخيـــف ومرعب ، ينهض مـــن الجنوب، ويقصد به مملكة إســـماعيل، إنها المملكة الرابعة التي ستنهض وتغزو الأرض، وتكون أعظم من كل الممالك».

Sebeos, The Armenian History Attributed to Se-

الاثني عشر»الخلافة الأموية هي المملكة الرابعة التي ستُدمر على أيدي الإمبراطور الروماني الأخير[٥٨].
وفي دراسة وضعها سباستيان بروك حول المصطلحات المستخدمة في مصادر القرن السابع السريانية، توصل إلى حقيقة مؤداها أن كتابها كانوا على وعي بطبيعة الوضع الراهن بعد التغيرات التي أحدثها الفتح العربي في موازين القوى بالمنطقة، وعبر عن ذلك بقوله «لقد أدركوا أن الحكم الفارسي والبيزنطي بات إلى زوال، وأن العرب لم يأتوا إلى أرضهم إلا لتأسيس مملكة جديدة، فوصفوا محمد والخلفاء دوما بلفظ (الملوك)، ونظروا إلى مملكة العرب كوريثة مباشرة لمملكتي بيزنطة وفارس»[٥٩]. ويبدو أنه وراء هذه المصطلحات يكمن تأثير دانيالي بصورته عن إمبراطوريات العالم الأربع المتعاقبة، إذ يبدو أن استخدام لقب «الملوك» و «المملكة» يعكس الاعتقاد في أن العرب المسلمين يمثلون الوحش «المملكة» الرابع الذي حدث عنه دانيال في رؤياه. غير أن هناك نقطة اختلاف رئيسية بين هذه الرؤية وتلك التي عبر عنها ميثوديوس في نبوءته، حقيقة أن بعض النصوص الشرقية لهذه الفترة اتفقت على اعتبار العرب وحش دانيال الرابع، إلا أن ميثوديوس اختلف عنها في رؤيته الخاصة باستمرار بقاء الإمبراطورية البيزنطية ونهوض إمبراطورها الأخير للقضاء على العرب، وهنا تثار إشكالية اعتقد فيها عدد من الباحثين الغربيين، وهي اعتقادهم في أن ميثوديوس قصد بالوحش الرابع بيزنطة وليس العرب، وهو الرأي الذي ينبغي إعادة مناقشته في ظل اعتبارات بعينها:

أولها أن رؤية ميثوديوس للعرب كوحش دانيال الرابع لا يتناقض مع بقاء بيزنطة، والتي باتت في حالة من العجز ولم تعد بقوة الوحش الرابع الذي تحدثت عنه الرؤيا. كما أن ظهور الوحش الرابع في رؤيا دانيال كما وردت في العهد القديم لم يستتبع قضاء تاما على الوحوش الثلاثة الأخرى، حيث وهبت البقاء على قيد الحياة إلى حين.
أما الاعتبار الثاني فيكمن، كما ذُكر قبلا، في حرص الكاتب على إضفاء نوع من المصداقية على نبوءته لإقناع معاصريه بها، ولاشك في أنه أدرك تماما أن جعله العرب وحشا رابعا، وهو الأمر الذي تم بالفعل ورآه معاصروه رؤية العين، سيكون أكثر فعالية وتأثيرا فيهم من جعله بيزنطة التي غدا الواقع الفعلي لا يبشر مطلقا بتحولها إلى وحش دانيال الرابع، بل أن قصده العرب هنا، خاصة بعد أن صاروا قوة عظمى أذاقت بيزنطة مرارة الهزيمة، من شأنه أن يوحي لمعاصريه بأنه طالما تحقق الجزء الأول من نبوءته، فلا شك في أن تحققها كلها أمرا مقدرا بات وشيكا.
ويتمثل الاعتبار الثالث في أن مملكة دانيال الرابعة، كما وردت في رؤياه بالعهد القديم، لا تتفق مطلقا مع ما عتبره هؤلاء الباحثون «مملكة الإمبراطور الأخير»، ففي رؤيا دانيال يتعاقب على حكم المملكة الرابعة عدد من الملوك بعد ظهورها وقضائها على قوة الممالك الثلاث الأخرى، وهو ما لا يصدق على ملك بيزنطة، فظهور ملك واحد فقط يقضى على العرب والإسلام ثم يذهب إلى بيت المقدس ويتنازل عن عرشه، يجعل مملكة العرب أكثر تشابها وقربا إلى مملكة دانيال الرابعة من مملكة إمبراطور بيزنطة الأخير. وأخيرا يمكن القول بأن ميثوديوس كان يعبر في نبوءته عن اتجاه ساد في بعض نصوص أواخر القرن السابع السريانية، والمتمثل في القناعة بزوال القوة البيزنطية وحلول القوة العربية كمملكة دانيال الرابعة.

---

beos, trans. R.W.Thomson, vol.I, Liverpool, 1999, pp.105-106; Brock, Syriac Views , p.9-10; Kaegi, Byzantine Reactions, pp.146-147; Guenther, Christian Experience, pp.371-372. . وينظر أيضا: ولتر كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية، ص٢٧٤.

(58) Drijvers, Gospel of twelve Apostles, p.211.

(59) Brock, Syriac Views, p.14.

●المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع الأجنبية:

–Alexander, P., «Medieval Apocalypses as Historical Sources», American Historical Review 73/4(April 1968), pp.997–1018.

–Alexander, P., «Byzantium and the Migration of Literary Works and Motifs: The Legend of the Last Roman Emperor», Medievalia et Humanistica 2(1971), pp.47–68.

–Alexander, P., The Byzantine Apocalyptic Tradition, Berkeley, 1985.

–St. Andrew, The Life of St. Andrew the Fool, ed.& trans. L. Rydén , Uppsala , 1995.

–Arendzen, J.P., "A New Syriac Text of the Apocalyptic Part of the Testament of the Lord", Journal of Theological Review 2(1901), pp.401–416.

–Brock, S., «Syriac Views of Emergent Islam», G.H.A. Juynboll, ed., Studies on the First Century of Islamic Society, Carbondale & Edwardsville, 1982, repr. Idem, Syriac Perspectives on Late Antiquity, London, 1984, no.viii , pp.10–12.

–Brock, S., "Greek into Syriac and Syriac into Greek", in: Idem, Syriac Perspectives on Late Antiquity, London, 1984, no.II, pp.1–17,

–Brock, S., (trans.) "An Extract from the Apocalypse of Pseudo–Methodius", in: The Seventh Century in the West–Syrian Chronicles, trans.A.Palmer, Liverpool,1993, pp.222–242.

–Constantelos, D.J., «The Moslem Conquests of the Near East as revealed in the Greek Sources of the Seventh and the Eighth Centuries», Byzantion 42(1972),pp.323–357.

–Drijvers, J.W., "The Gospel of the Twelve Apostles: A Syriac Apocalypse from the early Islamic Period", A. Cameron & L.I. Conrad, The Byzantine and Early Islamic Near East, vol. I , Princeton, New Jersey, 1992, pp.189–213.

–Elcheikh–Saliba, N.M., Byzantium Viewed by the Arabs, Ph.D. dissertation: Harvard University, 1992.

–Guenther, A.M., "The Christian Experience and Interpretation of the Early Muslim Conquest and Rule", Islam An Christian Muslim Relations 10/3(1999), pp.363–378.

–Hoyland, R.G., Seeing Islam as others saw it: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam, Princeton, New Jersey, 1997.

–Kaegi, W.E., "Inital Byzantine Reactions to the Arab Conquest", Church History 38/2(1969), pp.139–149. repr. Idem, Army, Society and Religion in Byzantium, London, 1982, no.XIII.

–Mango, C., Byzantium: The Empire of New Rome, New York, 1980.

–Martinez, F.J., Eastern Christian Apocalyptic in the early Muslim Period: Pseudo Methodius and Pseudo Athanassius, Ph.D. dissertation: Catholic University of America, 1985.

–Moorhead, J.,»The Monophysite Response to the Arab Invasions», Byzantion 51(1981), pp.579–591.

–Nau, F., "Methodius–Clément–Andronicus", Journal Asiatique 9(1917).

–Reinik, G.J., «Ismael , der Wildesel in der Wüste zur Typologie der Apokalypse des Pseudo–Methodios», Byzatinische Zeitschrift 75(1982), pp.337–344.

–Reinink,G.J., "Der Verfassername Modios der syrischen Schatzhöhle und die Apokalypse des Pseudo–Methodius", Oriens Christianus 67(1983), pp.46–64.

–Reinink, G.J., «Ps.–Methodius: a Concept of History in Response to the Rise of Islam,» in: A. Cameron & L. Conrad (eds.), The Byzantine and Early Islamic Near East I; Problems in the Literary Source Material (Studies in Late Antiquity and Early Islam, I; Princeton: The Darwin Press, 1992), pp. 149–187.

–Reinink, G.J., Die syrische Apokalypse des Pseudo–Methodius, Corpus Scriptorum Cristianorum Orientalium: vol. 541, Louvain: Peeters, 1993.

-Reeves, M., «Joachim of Fiore, Dante and the Prophecy of a Last Roman Emperor», **ΚΑΘΗΓΗΤΡΙΑ**: Essays presented to Joan Hussey for her 80th birthday, Porphyrogenitus, 1988, pp.385-394.

-Rydén, L., «The Andreas Salos Apocalypse: Greek Text, Translation and Commentary», Dumbarton Oaks Papers 28(1974), pp.199-261.

-Sackur, E., Sibyllinische Texte und Forschungen. Pseudo Methodius, Adso , und die tiburtinische Sibylle, Halle, 1898.

-Sebeos, The Armenian History Attributed to Sebeos, trans. R.W.Thomson, vol.I, Liverpool, 1999.

-Suermann, H., Die geschichtstheologische Reaktion auf die einfallenden Muslime in der edessenischen Apokalyptik des 7.jahrhunderts, Frankfurt am Main, 1985.

ثانيا: المصادر والمراجع العربية والمعربة:

-الكتاب المقدس

-صلاح عبد العزيز محجوب، «ظهور الإسلام وانتشاره من خلال مصادر التاريخ السريانية المسيحية»، المؤرخ المصري، العدد٢٧، يناير ٢٠٠٤م، ص٤٣-٨٩.

-صلاح عبد العزيز محجوب، «قصة إسماعيل في العهد القديم واستيعابها في الأدب السرياني المسيحي: رؤية وصفية»، بحث منشور في كتاب الآخر في الفكر اليهودي، جـ٣: الآخر من المنظور الديني والفلسفي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٩١-١٠٩.

-عبد العزيز رمضان، «البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية»، المؤرخ المصري، العدد ٢٨، يناير٢٠٠٥م، ص٣٩-٧٤.

-منى ناظم، المسيح اليهودي ومفهوم السيادة الإسرائيلية، أبو ظبي، ١٩٨٦م.

-ميخائيل السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، جـ٢، تعريب مار غريغوريوس صليبا شمعون، حلب، ١٩٩٦م.

-ولتر كيغي، بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة، ترجمة نقولا زيادة، دمشق، ٢٠٠٢م.

-يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح الإسلامي، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة ٢٠٠٠م.